الفصل السابع

التربية والقيم الثقافية

القيم والثقافة

إن قيم الثقافة هى مثالياتها التى تستحق الكفاح من أجلها ، بعضها محددة مثل قيمة الأمانة وبعضها الآخر يشق تحديده مثل إيماننا فى القيمة العليا للفرد . وبعضها مثل الوطنية دائما على شفاه الناس بينما بعض منها مثل إمكان قياس الواقع ، نادراً ما يعترف بها .

ولا محل للشك فى تنوع القيم الثقافية (١) ولنفكر فى قيمة التنافس التى قد تبدو ضرورية جداً لطريقة الحياة الأمريكية إذ تدفع الأميركيين دائماً على التقدم ، وهدفنا الدائم هو الكسب وأن نصل قبل غيرنا وأن نتسلق درجة أخرى فى سلم لا نهاية له من الرفاهية والنجاح . (ولا ينكر ذلك بالطبع أن هناك قيما أخرى فى الاتجاه الآخر تجذب الأمريكى مثل الانسجام الجماعى والتعاون) . إلا أن التنافس مكروه لدى الكثير من الشعوب البدائية مثلما فى حياة الهوبى إذ يتعلم الطفل ألا يكسب مباراة أو يبز رفاق الفصل (٢) ويعتبر الحسد والتنافس من الجرائم البسيطة بين المكسيكيين . فالشخص فى موقع السلطة عند المكسيكيين لا يعطى أوامر لرفاقه وإذا ما اقترح اتباع سلوك معين فانه يفعل ذلك كشخص يعطى معرفته لهم وليس كشخص يسيطر على الآخرين بشخصيته أو مركزه . وما يتخذ من قرارات جماعية يصدر عن إجماع بدلا من سيطرة الغالبية (٣) .

وبالرغم من أن قيمنا الثقافية تعم حياتنا فانها لا تجعل منا صوراً متشابهة . ومن أسباب ذلك أن التغير الثقافى يبعد كثيراً عن التناسق . ولهذا تتعايش القيم المتصارعة فى ذات الثقافة وتتأكد القيم المختلفة التى يأخذ بها أفراد مختلفون . وتختلف الجماعات الاجتماعية فى بعض قيمها وفى المجتمع الجمعى بشكل خاص حيث يتعرض الشخص لمجموعة كبيرة من هذه القيم بل أكثر من ذلك نجد أن كل شخص يترك بصمات تجربته الشخصية على قيم ثقافته كما يراها .

ويشق على الإنسان العادى أن ينظر إلى قيمه نظرة موضوعية مستقلة إذ يتعلم فى طفولته أن يعتبرها عمومية ومطلقة ولهذا فلا مجال لتغيرها ويعجز الطفل عن فهم صلاحية أمر من الأمور إذا لم تقده للاعتقاد أن ذلك صالح للناس فى كل مكان . بعض الأفعال مثل الكذب تعتبر على سبيل المثال أفعالا خاطئة بشكل عام ولكن لها ما يبررها فى حالة جدتها بحيث يتعذر على طفل فى العاشرة أن يدركها . بل زد على ذلك أن الرجل البالغ ما إن يكتسب ، وغالبا دون وعى ، تلك القيم خلال اكتسابه الخصائص الحضارية فانها تدخل ضمن شخصيته وتؤثر تأثيراً كبيراً فى تشكيلها .

وتتجه هذه القيم التى يقبلها جميع أفراد الثقافة إلى أن تصبح عمومية جداً ، ولهذا السبب يتعذر التحقق منها تماماً . ولنبحث بعض القيم التى نتفق عليها تقريباً وهى ضرورة إتاحة فرصة متكافئة أمام جميع الناس ليستفيدوا من مواهبهم ، أى ضرورة حصول جميع الناس على بعض الحقوق والحريات (مثل الحرية الدينية والمساواة أمام القانون) وضرورة حل المشاكل منطقياً ؛ ومن الملائم ديمقراطياً أن مراعاة هذه القيم يمكن أن يجعل الحياة أفضل للجميع . ولكن هل يحصل الجميع حقاً على فرصة متساوية حتى يؤدوا شيئاً خلال حياتهم ؟ هل يعاملون جميعاً بمساواة أمام القانون ؟ وهل يمكن تحقيق تلك المساواة ؟ .

يتصل بدراسة علم الإنسان والتربية ثلاثة جوانب تتصل بالعلاقة بين القيم والثقافة بوجه خاص . أحدها هو التباين بين القيم الثقافية وممارستها الفعلية ــ أى التباين بين الجانب المثالى والواقعى فى الثقافة ــ والثانى : هو الصراع بين القيم التى تولدت عن التغير ، والثالث : هو عدم الاتساق بين القيم الثقافية السائدة وقيم الأقليات فى الثقافة الواحدة . ولنبحث كل ناحية منها على حدة .

المثالية ضد الواقعية فى الثقافة :

الصراع فى الثقافة : نظراً لعدم وجود ثقافة متكاملة فان مثالياتها تميل إلى الاختلاف عن تطبيقاتها . إذ تبيح كل ثقافة لأعضائها بعض الأهداف وبعض المعايير (أنماط سلوكية) حتى يبلغوها . وليست هذه المعايير بالضرورة أعظم كفاءة من غيرها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة ــ فأغلب الثقافات تحظر مثلا استخدام القوة أو الخداع لإحراز الأهداف ــ ولكنها كقاعدة تساير القيم الموجودة والنظم الثقافية . وتختلف هذه القيم فى الوزن الذى تحمله فقد تكون مما يوصى باتباعه أو يفضل أو مجرد ما يسمح به .

ولكن لما كانت الثقافة تبيح بعض الأعراف فان هذا لا يعنى دوام مراعاتها فكلما قلت فعالية الأعراف بسبب بلوغ أهداف الثقافة كلما ضعف الميل لاتباعها . وبالإضافة إلى ذلك ، كلما أجبرت الثقافة أعضاءها للتركيز على أهدافها وقللت من تأكيدها للأعراف الموصلة إليها فنجد مرة أخرى قلة مراعاة هذه الأعراف . وهكذا يتهدد الثقافة سوء التنظيم (التفكك) حتى تصل فى الحقيقة إلى حالة يسميها دوركايم انعدام المعايير أى عدم الالتزام بالمعايير حينما لا تصلح المعايير الرسمية فى الاستجابة لواقع الحياة فى الثقافة (٤)

وفى أمريكا تمتدح دوماً بعض أهداف النجاح وبخاصة ما يتصل منها بالثروة ومظاهرها (المنزل الصيفى ، ورحلة الشتاء ، والطائرة الخاصة)

وذلك أكثر من الوسائل المعروفة لبلوغها . وتؤكد لنا ثقافتنا أن الإنسان الذى يعمل باجتهاد ، ويعمل عملا إضافياً سينجح فى الحياة أى أنه سيجمع مالا كثيراً إلا أن قلة من الناس من يصبحون أغنياء بالعمل وقتاً طويلا وبمشقة لأن اصطلاح الغنى نسبى وأن حالة الغنى يتحتم بالضرورة أن تكون حالة خاصة بالأقلية وفقاً لتعريفها (ففى بلد المليونيرات نجد أن أصحاب البلايين هم الأغنياء) . ولم نذكر هنا معوقات النجاح الأخرى مثل الطبقة الاجتماعية أو الأصل أو الجنس والتى قد لا تقف عقبة أمام ثمرة العمل الشاق ولكنها تحد من الفوائد التى يتيحها للعامل . وهكذا بالرغم من أن أحد الأعراف وهو العمل الشاق قد أجازته الثقافة حقيقة فنادراً ما يؤدى إلى الثروة المرجوة إلا أن جميع الناس يدفعون للكفاح من أجل النجاح كما تحدده الثقافة . وقد يكون نتيجة لذلك ليس مجرد القلق أو الإحباط ولكن السلوك المعادى للمجتمع أيضاً إذ يسعى الناس إلى طرق أكثر فعالية بدلا من المعايير الرسمية لإشباع بواعث النجاح المغروسة فيهم .

ولا يتسبب الافتقار للفرصة وحده فى السلوك المنحرف بل إن ذلك يعود إلى مزيج من الفرص غير الكافية والتهليل لأهداف النجاح ليس من أجل الأقلية بل من أجل مجموع السكان . وتضع الثقافة أمام أعضائها بعض الأهداف إلا أن ظروف الثقافة تجعل الوسائل المعترف بها للوصول لهذه الأهداف غير فعالة بالنسبة لمعظم الناس . وبايجاز تثير الثقافة توقعات نادراً ما يمكن تحقيقها وفقاً لما تتيحه لهم من أساليب .

ولأذكر مزيداً من اختلافات بين النظرية والتطبيق فى الثقافة الأمريكية . فمن ناحية نجد المشروع الحر ومن ناحية أخرى نجد شركات قليلة تسيطر على الاقتصاد وقطاعات عريضة من هذا الاقتصاد مثل الدفاع والطيران الممولان من الحكومة الفيدرالية ، أما رجل الأعمال الصغير المستقل الذى يمتدح فى الغرف التجارية فتسحقه اقتصاديات الإنتاج الكبير ثم مرة أخرى

نجد امتداح الفردية إلا أن ما يحدث هو الاندماج والتجمع . أضف إلى ذلك ما نراه من تشجيع الشبان لتكوين صداقات مع الجنس الآخر منذ وقت مبكر والتزوج متأخراً ولكن الاتصال الجنسى قبل الزواج من الأمور المستهجنة . ثم نجد ، وهذا ما قررته سالفاً أن هناك امتعاضاً شائعاً من المعلم لأنه نظرى جداً وغير كفء عملياً كما أنه موضع شك إذا دخل حلبة السياسة أو التجارة أو الصناعة .

الصراع فى التربية:

تتمكن مدارسنا بألف طريقة وطريقة أن تثبت وتدعم القيم الثقافية ولما كان معظم المديرين والاستشاريين من الطبقة الوسطى ، لذلك تعكس كثير من الممارسة التربوية ، وإن كان ذلك بشكل خفى اتجاهات هذه الطبقة (٥) . وبالرغم من اختلاف رجال التعليم فى كثير من النواحى إلا أن جميعهم يحملون بعض القيم مثل أهمية سلطة البالغ والاحتياج للنظام والتعذيب وقيمة المعرفة والنجاح التربوى ، وصفات الطبقة الوسطى الشبيهة مثل الدقة والأدب وسلامة الحديث واحترام الملكية . كما تظهر القيم الثقافية فى منهج المدرسة أيضاً إذ تقدم الدراسات الوطنية قيم الديمقراطية المفتوحة والحركة الجماعية وإمكانية تحسين مصير الإنسان . كما تتجه الدراسات التاريخية إلى شرح الثقافة من اتجاه مناسب لذلك (٦) .

كذلك تحوى الأنشطة والنظام المدرسى القيم المقبولة السائدة (٧) . إذ يتعلم الطفل فى الفصل المواظبة والكتابة الواضحة والوفر فى استعمال الورق والصمت عندما يتحدث المدرس . ويتأكد الباعث للمنافسة والتفوق فى رفع التلميذ يده لإبداء المقترحات وإجابة الأسئلة . كما يتعلم فى المباريات أن يكون عادلا فى اللعب ويأخذ دوره مع الآخرين ويتعلم من النوادى النفوذ الذى يمارسه الضابط ، ويكتسب من احتفالات المدرسة الولاء لها والتضامن مع رفاقه الطلبة . إلا أن معرفته بهذه القيم لاتعنى اكتسابه لها حتى

تصبح قيمه الخاصة إذ تتدخل عوامل أخرى فى الأمر مثل معايير مجموعة الرفاق ، وعدم تفضيل بعض المدرسين ، وربما عدم تحمس أبويه لتربيته .

ولا مفر من أن نجد المدرسة طرفا فى هذا الصراع بين الثقافة المثالية والفعلية أو الواقعة . فهل تقوم المدرسة بتربية الطفل فى الاتجاه الذى تتخذه بعض الأهداف النظرية المرغوبة أو تكيفه وفقاً لحقائق الثقافة الواقعة ؟ ويتحتم على الناس وفقاً للنظام الأخلاقى الديمقراطى أن يتعاونوا على إنجاز الأعمال إلا أن التنافس يغلب فى مجتمعنا . ولهذا فان المدرسة تتردد بين تشجيع الأطفال على التعاون أو تشجيعهم على التنافس دون أن تتخذ موقفاً حازماً فى جانب أى من القيمتين . إننا نجد ضرورة حصول كل فرد على فرصة متكافئة ليتخذ له طريقا عمليا فى حياته يتناسب مع مواهبه إلا أن ذلك لا يتيسر لأغلب النساء فى معظم الأعمال كى يحققوا النجاح . ولهذا تتردد المدرسة بين تشجيع البنات للاتجاه فى الحياة العملية التى تتاح لهن رسمياً وبين تمرينهن ليصبحن زوجات فى المنازل مادام أغلبهن يتخذن هذا الطريق . كما أن هناك اختلافاً بين الاعتقاد فى ضرورة تحرير التربية وفكر كل طالب مهما كانت خلفيته والحقيقة القائلة أن الكليات ذات سياسات انتقائية فى القبول بها . ومن هنا تتأرجح المدرسة بين التربية من أجل التنمية والثقافة والتربية من أجل الاستمرار فى الدراسة العالية .

ونجد أكبر اختلاف بين المثالية فى المساواة ودافع التفرقة فى استمرار كثير من المدارس والمؤسسات الاجتماعية فى تطبيق التفرقة بل إنه من الصعب حتى فى الجزء الأكبر من البلاد حيث لا توجد تفرقة رسمية أن يحصل الطالب الزنجى على التربية المناسبة مثل الطالب الأبيض ومن أحد الأسباب أن المدارس فى المناطق التى يقطنها الزنوج تتميز بسوء هيئة التدريس والإدارة ومن الأسباب الأخرى أن المدارس التى يغلب فيها الطلبة البيض تسيطر عليها . الاتجاهات البيضاء وهى التى لم يعتدها الطالب الزنجى كما يقع فى نفس الورطة

بعض الأقليات مثل : المكسيكيون والبورتوريكيون (٨) .

القيم التقليدية ضد القيم الجديدة

الصراع فى الثقافة : كلما تغيرت الثقافة ــ وليكن ذلك من الزراعة إلى الصناعة ــ فان بعض أو كل القيم بها ستتغير أو يعاد تفسيرها وإن لم يكن ذلك بشكل مشترك أو على الفور . لقد كان تحول الولايات المتحدة إلى مجتمع ثرى سببا فى وضع القيم الخلقية البيوريتانية فى مقارنة مع قيم المجتمع الصناعى الذى يسعى للوفرة . ويتحتم على تجارة الأعمال كى تستمر فى النمو أن تغرى الناس باستهلاك كميات متزايدة من غير الضروريات ، وقد نتج عن ذلك تقهقر الزهد أمام الاستهلاك ، والتقهقر أمام الشراء بالتقسيط (٩). أما الناحية الجنسية وهى أول ما يميز ما ينصرف عنه الزاهد فقد تزايدت إثارتها بالملابس ، والإعلان ، وأساليب الملاهى العامة . وقد تحول الإيمان بأهمية المستقبل إلى نظرة تدعو لضرورة الاستمتاع بالحاضر لأن المستقبل غير مضمون . ولقد حل التفكير الجماعى محل الاعتماد على النفس .

حتما إن بعض النقاد ينكرون أن نواة نظام القيم الأمريكى قد تغير على الإطلاق ويقول « تالكوت بارسونز » و « وولينستون هوايت » أن هذه النواة هى مفهوم (الفردية الأدائية) أى الإيمان بأن الشخص عليه أن يهدف إلى تحقيق أنواع النجاح التى تسود مجتمعه (١٠) . ويرون اليوم أننا لازلنا نتوقع من الشخص أداءه العمل الشاق وألا يستجم حتى يحرز النجاح ، والذى تغير هو الغايات النوعية المزمع إحرازها وطرق إحرازها . ففى وقت من الأوقات كان الهدف الربح المادى عن طريق الاستثمار ، وكان النمط هو المقاول المستثمر . أما الآن فالهدف هو التنافس الكبير فى الدور المتخصص فى منظمة كبيرة ، ويتحقق الهدف بأداء دور مسئول حتى يتحقق قبوله . والنمط هنا هو المدير التنفيذى المرن (الموجه) وتبقى حقيقة وجود هذه القيم

الغربية بالنسبة للقيم أو التفسيرات السابق التركيز عليها مهما كانت هذه القيم سواء كانت نابعة من التغيرات الاجتماعية أو الاقتصادية فى القرن العشرين وتستبدل بالقيم الأساسية أو أنها مجرد إعادة تفسير لها .

الصراع فى التربية : ويبدو الصراع بين القيم التقليدية والقيم الجديدة فى الاختلاف بين الهدف وبين الأثر الفعلى للتدريس ، وبين تأثير مدرس يرغب فى وربما يظن أن لديه أثراً والأثر الذى يحدثه فعلا (١١) . ومن رأى (سبندلر) أن التربويين يميلون عموماً إلى أن يكونوا أقل تقليدية عن العامة من ناحية القيم (١٢) . ويميل شباب المدرسين بشكل واضح على الخصوص نحو القيم الجديدة ثم يليهم كبار المدرسين ثم المديرون . وتميل لجان المدارس إلى مزيد من المحافظة إذ تتشكل غالباً من أعضاء المجتمع الكبار الذين نجحوا فى الحياة لذلك يميلون إلى مساندة قيم النظام المستقر . وقد يكون الطلبة أقل تحفظاً من مدرسيهم تقريباً . ويعتمد ذلك إلى حد ما على الحد الذى بلغته التوعية بالقيمة فى أسرهم سواء التقليدية فيها أو الجديدة ، فاذا كانت تقليدية نجد الأطفال يميلون إلى التمسك بالقيم التقليدية أقل من والديهم وإن كانت جديدة فيميلون لاحتضان القيم الجديدة بمزيد من السرور . ومن ناحية أخرى قد يتخذ الأطفال أيضا مواقف تقليدية أو تجديدية متطرفة كجزء من ثورتهم على آبائهم أو البالغين بشكل عام .

ويميل المدرسون عن خبرة وعن كبت داخلى لهذه الصراعات الثقافية ولدورهم فى نشر الثقافة إلى فعل ذلك مع طلبتهم ومن هنا يحبطون أو يسيئون لكثير من الأهداف المرجوة من التربية . وهم لا ينقلون هذه الصراعات كقاعدة عن عمد وإنما يعكسون دون وعى حالة الثقافة المعاصرة . حقا إن هذه الصراعات تتخلل جميع الثقافة الفرعية التربوية وبوضوح كبير فى مناهج ، وطرق التعليم ، وفى الكتب الدراسية ، ووسائل التعليم ، وفى علاقات المدرس بالطالب وفى التدريب المهنى للمدرسين .

وهناك أمثلة للنظر والبحث . إن الدراسات الاجتماعية تستهدف ضمن أهداف أخرى ، تعريف الطالب ، بالنظرية والتطبيق للديمقراطية إلا أنهم باستمرار يواجهون الفشل باسم أداء الأمور بطريقة ديمقراطية فى فصل الدراسة كما يتم التدريب على المقدرة على التفكير المستقل المجرد الذى تحتاجه الديمقراطية . وأكثر من ذلك نجدهم يميلون لتعزيز عادات السلوك الجماعى السابق وضعها ضمن إطار القيم الجديدة .

وتصل من الكتب الدراسية غالبا معان غير مقصودة . ولقد فحصت دوروثى لى أحد كتب الاقتصاد المنزلى وخمسة عشر كتيبا عن الولاية والمدنية تستخدم فى مدارس ابتدائية وثانوية ، وذكرت لنا عدداً من التناقضات (١٣) إذ يعلن أحد الكتب بأنه يسعى لمساعدة الطالب للمشاركة فى خبرات ذات معنى فى المنزل ، وبالرغم من أن الكتاب يقدم كثيراً من التفاصيل عن أنشطة منزلية متباينة مثل اختيار العلاج المناسب ، والحياكة فانه لا يذكر شيئاً عمن يسهمون فى هذه الأنشطة أو عمن سنساعدهم فيها ، ويقرر كتاب آخر أن هدفه مساعدة الطالب فى الاستمتاع بالمنزل (بفعالية) وتذوق الحياة الأسرية ، ولكنه يعالج أعمال المنزل على أساس أدائها بأفضل ما يمكن ، وبحيث يتوفر للمرء مزيد من وقت الفراغ يقضيه خارج المنزل . ويقرر كتاب آخر بأنه يسعى لتطوير شخصية ناضجة (التى قد يظن المرء أنها تدعو للاهتمام بحياة الفكر والتخيل) لكنه يؤكد النواحى الخارجية المتجانسة للشخصية المنقادة للآخرين فى الزواج والتصرفات والأشياء المحبوبة ، وتكوين الصداقات ، واستغلال وقت المرء أفضل استغلال . إذن فجميع هذه الكتب تحوى مادة لا تتمشى مع أهدافها المعلنة .

وإذا ما اتجهنا لفصول الدراسة ونظمها فنجد أن كثيراً من المدرسين يسعون لنقل التراث الثقافى باتباع طرق متهاونة متسامحة تتسبب فى قدر من الحرية لا يتمشى مع الانتباه الذى يحتاج إليه المدرسون لو أنهم عمدوا

لتوصيل التراث بفعالية . ويصف لنا جولس هنرى على سبيل المثال مدرسى المدرسة الابتدائية الذين ينقلون دون وعى الظاهرة الثقافية المعروفة (بالعدوان داخل الجماعة) (١٤). وتستجيب المجموعة مع أفرادها ممن لم يقاوموا العدوان بطريقة الفرد الذى يتجه طبقاً لدافع داخلى ، ولكنه يحاول أن يتعايش مع هذا الدافع . ويضرب مثلا بمدرس فى الصف الخامس خصص فترة للاستماع لتقارير قصيرة طلب من أعضاء الفصل أن يقدموها . وكان هدفه إعطاءهم خبرة لتطوير مهارتهم فى الكتابة وكتابة التقارير ، وربما يفترض المرء ، أنه يهدف لمساعدة طلبته للتعلم بطريق النقد . ولكن الحقيقة أن نقداً بناء لم يصـــدر عنهم كما لم يسع مدرسهم لهذا الهدف . وقد نتج عن ذلك عكس ما كان يهوى المدرس تماماً إذ اندفع الأطفال فى نقد هدام كل ينقد عمل الآخر ، ولقد تأيدت بذلك عادة العدوان داخل الجماعة التى استمدت جزئيا من الثقافة . بل إن كثيراً من المدرسين يسعون من خلال علاقاتهم مع الطلبة إلى أن يكونوا قادة وموجهين ، ولكن تحقيق ذلك يتطلب الإبقاء على المودة ورغبة الطالب حتى يصل الأمر إلى فقدانهم السيطرة على النظام . ويدخل المدرس المنتظر ، الذى ورث القيم التقليدية للطبقة الوسطى أو على الأقل الثقافة الفرعية للمؤسسة التدريبية ذات القيم الناشئة بشكل عام . وتميل المؤسسة لمراعاة الغرض الأول من التربية كمعين للطفل على العمل واللعب بانسجام مع بقية أعضاء الجماعة الآخرين ، وهذا ما يعوق نمو الفرد غالبا . وهكذا فان مدرس المستقبل فى موقف يشبه السكان الذين يكتسبون الثقافة والذين يجب أن يتناولوا بشكل ما الصراع بين ثقافتهم والثقافة الجديدة التى يتزايد قبولهم لها .

وقد تكون استجابة المدرس من عدة اتجاهات . فاذا ما شعر بتهديد القيم الجديدة له فقد يعمل على تأكيد قيمه القديمة بشكل إصرارى ويقدمها دون تعديل فى حجرة الدراسة . وقد يبالغ فى تعويض الاتجاه الآخر بقبول القيم الجديدة دون نقد ويسعى لتحقيق انسجام الجماعة بأى ثمن . فاذا لم

يكن ممن يراجعون أنفسهم فسيستوعب داخله كلا الاتجاهين المتصارعين دون تحليل فى صورة إطار لقيم ثابتة خاصة به . وفى الحالة الأخيرة سيتردد بين مختلف أساليب معاملة المجموعات والأفراد ، وخلال عدم ثباته فسيوقع نفسه وتلاميذه فى المتاعب. وأخيراً فانه إن كان مفكراً وثابتا فقد يعترف بالصراع دون أن يشعر بأن ذلك الأمر يتهدده وفى هذه الحالة فانه سيحلل عناصر كلا النموذجين ويضعها فى نظام متلاحم مرتبط به . وسيتبع فى حجرة الدراسة طريقا وسطاً بين التطرف الفردى والتطرف المجموعى . ويعتقد سبندلر أن هذا النمط من المدرسين أصبح أكثر عدداً ولكنه لسوء الحظ لا يمثل سوى الأقلية (١٥) .

ويرى سبندلر أن كلا النمطين من المدرسين ينقلان نقلا محدوداً جداً . فالأول لأنه يوصل ما يتعارض مع معرفته المعلنة ونواياه وإن كان يحرز فعالية مع أطفال الطبقة الوسطى فحسب ممن يشاركونه قيمه ، أما الآخر فلأنه يهدف إلى تحقيق الانسجام الجماعى ولا يعطى للأفراد سوى اهتمام قليل . وقد يؤثر كلا المدرسين فى عدد قليل من الأطفال لكنهم سيفشلون فى التأثير على الغالبية . ويصل النوع الثالث إلى عديد من الأطفال بطرق كثيرة ولكنه ضعيف جداً وغير مستقر بحيث يمكنه أن ينقل الثقافة بفعالية ، ومن جهة أخرى يستطيع المدرس الرابع ، وقد حلل أفضل العناصر لكلا النموذجين من القيم أن يصل لمزيد من الأطفال بطرق عديدة ولهذا فانه « ينقل ما عنده على قنوات عديدة » .

ويمتدح سبندلر ، عند معالجة مشكلة النقل العرضى للصراعات الثقافية ما يسميه (العلاج الثقافى) (١٦) . إذ يستطيع المعالج الثقافى فى حالات قليلة دراسة المدرس على انفراد وفى حجرة الدراسة وأن يوضح له كيف تضيق القيم التى اكتسبها اتجاهاته مما يمكنه من تعميق وتوسيع معالجته . إلا أن سبندلر وقد رأى أن هذه العملية تستهلك كثيراً من الوقت والجهد اقترح

أن توضع المعلومات المكتسبة فى هذه الحالات تحت تصرف الطالب الذى يدرس ليتخرج مدرساً فى المقررات الدراسية الأساسية حتى يمكن مساعدته على فحص قيمه المكتسبة قبل أن تظهر تحت ظروف حجرة الدراسة .

إلا أن ذلك يتسبب فى حيرة ، ذلك أن ما ينقل من صراعات ثقافية إلى الأطفال فى المدرسة له فوائده فى الإسهام فى تباين الشخصيات وهو ما يؤدى إلى الابتكار أو التجديد الثقافى ، وأحد حلول هذه المشكلة هو أن يعترف المدرس بوجود هذه الصراعات بمزيد من الوضوح حتى عند نقلها للتلاميذ ومن الأفضل نقل صراعات مختارة فحسب . إلا أن خطراً آخر يكمن هنا أيضا ذلك أننا لو تحكمنا فى الصراعات التى ننقلها فاننا سنميل إلى نقل الثقافة بشكل ضيق ، ومن هنا نشجع النمطية . ولنفرض من ناحية أخرى ، أن المدرس يسعى إلى أن يكون متخيراً ، ومن هنا يتمكن من اختيار ما يثير أكبر عدد من الأطفال . والسؤال هو : هل يستطيع فى نفس الوقت أن ينقل التراث الثقافى بفعالية إلى كل من هؤلاء الأطفال ؟ إن هذا يثير أمامنا مشكلة نظرية لم يحلها التربويون بعد ، وهى أنه يجب أن نعرف ونسيطر على الصراعات التى ينقلها المدرسون ، ولكن إذا تمكنوا من تحقيق ذلك فانهم يكونون فى موقف يمكنهم من الاتجاه إلى النمطية غير المرغوبة .

القيم السائدة ضد قيم الأقلية :

الصراع فى الثقافة : يعيش كثير من أفراد مجتمعنا خارج الثقافة السائدة وهى ثقافة الطبقة الوسطى بشكل عام (١٧) وهم لم ينشأوا فيها ولا يتطلعون إليها ، ويتسبب الفقر والجنس أو السلالة فى فصل كثيرين عنها كما تتسبب قلة التعليم فى فصل عدد كبير منهم (١٨) .

ولما كان فضل التربية عليهم قليلا فإن كثيرين منهم لديهم عقيدة ضعيفة فيما يمكن أن تؤديه لأطفالهم ومنهم من يتوقعون لتعليم أولادهم تعليما طيبا يمكن أن يعاونهم ولو معاونة ضئيلة لأنهم ذاتهم يفتقرون للتعليم الرسمى .

ويشتد هذا الاغتراب عن ثقافة الغالبية بوجه خاص بين من ينحدرون من أصل غير أوربى، وسأتناول منهم الامريكى المكسيكى ، والأمريكى الزنجى بوجه خاص (١٩) .

ولا يوجد وجه شبه بين الزنوج والمكسيكيين إلا أنهما يتفقان فى انتمائهما إلى الثقافات الفرعية . إلا أن الزنجى من الناحية التقليدية كان دائماً أقرب من المكسيكى إلى الحياة من حوله وتعكس ثقافته بمزيد من الوضوح القيم الأمريكية السائدة . أما المكسيكى فيميل إلى عزل نفسه جانباً . وبالنسبة للتفرقة فاننا نجد أن الزنجى قد يعارضها بينما ينسحب المكسيكى ويغطى تراجعه غالباً بالأدب ودماثة الخلق ، ويميل المكسيكى إلى عدم حضور المؤتمرات المدرسية واجتماعات مجالس الآباء والمعلمين فاذا طلبت منه المدرسة التعاون فى مراعاة مواظبة ابنه أو التنبيه على ابنته لأداء واجباتها المنزلية فانه يرد بأنه ينوى عمل ذلك . إن أسلوبه لتجنب الصراع هو الأدب والتسويف (٢٠) .

وقد كتبت روث لانديز تقول : إن الثقافة المكسيكية أكثر تسلطية من الثقافة الزنجية ، ويختلف الطفل المكسيكى عن أغلب الأطفال الأمريكيين الآخرين من بيض أو زنوج إذ يتوقع منه انتظار التوجيه من البالغين ، وغالباً ما يكونون من الآباء أو كبار الأقارب وذلك دون السماح لهم بممارسة المبادأة الفردية .

وتكتب لانديز تقول : إذا أريد منهم أن يتصرفوا بمبادأة فى المدرسة فانه يتحتم أن يتعلموا كيف يتخلصون من عاداتهم التقليدية ألا وهى الانصياع للآخرين . ويتحتم على مدرسيهم أيضاً معاملتهم بمزيد من الحزم أكثر مما يفعلون مع بقية الأطفال الأمريكيين .

ويجب على مستشارى المدارس أن يتخذوا لصالحهم عديداً من القرارات ويجب أن يتابع إداريو المدرسة قراراتهم بمقابلة الآباء شخصياً والاتصال

بهم بالخطابات والتليفون وهى أساليب قد يعتبرها بقية الأمريكيين تدخلا أو تسلطاً (٢١) .

وتستمر لانديز تقول : إن المرأة الزنجية تتمتع بحرية تشبه حرية المرأة البيضاء . ولا يدهش الآباء الزنوج إذا ما تولت تعليم أبنائهم مدرسة أو مسايرتهم لبعض عادات تكوين صداقات مع الجنس الآخر والذى تشجعه فى الحقيقة المدرسة ذاتها . أما المرأة المكسيكية وبخاصة الشابات وغير المتزوجات فليس من المنتظر منهن تقلد مراكز السلطة ولهذا لا يحس الآباء المكسيكيون بالراحة إذا ما تولت تعليم كبار أطفالهم مدرسات شابات وغير متزوجات ويحسون بالخزى إذا ما اكتسبت ابنتهم بعض الاستقلال الجنسى مثل الفتاة الأمريكية العادية (٢٢) .

ويميل طفل الطبقة الوسطى البيضاء إلى أن يأتى إلى المدرسة بنظرة مختلفة تماماً عن نظرة طفل الطبقة الدنيا سواء بيضاء أو ملونة . فمنذ طفولته وما تلاها كان محل رعاية وتغذية وكساء من والدين لديهما الوقت والمال للإنفاق عليه . لقد أظهرت أمامه منذ البداية الرقة والفهم والكبرياء والود . إنه يحس بالثقة ويحس بالراحة فى عالم يفترض أنه سيلاقى فيه النجاح كأمر طبيعى . وما إن يكتسب الحافز واتجاهات والديه فانه يصير هادفاً وواثقاً فى نفسه .

ونادراً ما يعرف أبناء الفقراء مثل هذه المشاعر . فلا وقت لدى والديهم ليخصصاه لهم . فالأب مرهق جسمياً وربما يعانى من البطالة المزمنة ، والأم تعمل أو تتحمل فوق طاقتها من الأعمال المنزلية ، ولا يكترث عالم الطبقة المتوسطة البيضاء بهم بل وربما كان معادياً لهم . ولما كان الهدف يعوزهم فانهم يفتقرون للطموح ويحسون بالاغتراب فى المجتمع الواسع ، ولديهم إحساس ضئيل بالغرض من وراء حياتهم ، ويستثنى من ذلك المكسيكيون إذ أنهم أقل نظاما وبخاصة جنسياً عما هو الحال بين أطفال الطبقة الوسطى

ويعبرون عن أنفسهم بمزيد من الانطلاق ، وبدلا من كبت ميولهم حتى يكافحوا من أجل بناء المستقبل فانهم يميلون لأن يعيشوا لحظتهم .

الصراع فى التربية : تغص المدرسة الأميريكية العادية بقيم الطبقة المتوسطة . إذ يتوقع من الطلبة الأدب واتباع التعاليم واحترام ملكية الآخرين ، وتشجيع العمل الشاق والرياضة ، وفوق كل ذلك الطموح . ولقد اعتاد الطفل من الطبقة المتوسطة فعلا كل هذه القيم فنجد أن مدرسيه أعضاء الطبقة المتوسطة يستجيبون له بفهم وتقدير . إلا أن كثيراً من هذه القيم قيم غريبة بالنسبة لطفل من الطبقة الدنيا . إذ لا يحس بذاته كجزء من المدرسة لاختلاف قيمه عن قيم المدرسة .

ولهذا فنادراً ما يفلح أطفال الطبقة الدنيا الموهوبون فى المدرسة مثلما يفلح قرناؤهم من أطفال الطبقة الوسطى حتى ولو كانوا أقل منهم استعداداً وبعضهم لا يكمل الدراسة بالرغم من قدرتهم الفكرية على الاستمرار (٢٣).

وتسيىء ثقافة الطبقة المتوسطة فى المدرسة إلى الطفل بطرق لا حصر لها . إنه لم يألف لغة المدرسة . وتتمشى الكتب الدراسية أيضاً مع اتجاهات الطبقة المتوسطة وبخاصة الطموح وتصف الأمثلة التى يعرضها أفراد الطبقة المتوسطة فى مواقف خاصة بهذه الطبقة . إنه لا يحس بالارتياح مع مدرسيه إذ يتحدثون ، ويلبسون ، ويفكرون بطريقة مختلفة عنه ويقدرون أشياء لا يقدرها . كما تبدو له الموضوعات التى يدرسها : كالنحو ، والتاريخ والعلوم ذات صلة بسيطة أو لا تتصل إطلاقا بالظروف المريرة وأحياناً المؤسفة التى يتحتم عليه التفاعل معها بعد تركه المدرسة . كما قد تنتهك لوائح المدرسة ذاتها ما اعتاده من دروب (٣٤) .

فكيف يستطيع المربون تذليل الاختلافات الثقافية التى تعوق الاتصال الفعال ؟

أولا : يجب أن يدرس التربويون الثقافات التى يتربى فى ظلها الأطفال حتى يتسنى فهم التوقعات والآمال التى يحملها الأطفال إلى المدرسة . يجب استخدام هذه المعرفة فى تطوير أساليب ملائمة لجميع نواحى العملية التربوية . وسيكتشفون أن عديداً من المشاكل تنبع ليس من انحراف مزاج التلميذ أو والديه ولكن من سوء تفسيرهم لطرق الحديث والتصرف التى اعتادوها . وتحكى لنا (روث لانديز) حالة صبى ذكى نابه ولكنه أمريكى من أصل كورى وغير منتظم وكان منعزلا تقريباً عن مدرسته لأن سلطات المدرسة لم تفهم تقاليد والده الكورى الثقافية . وقد حاول ممثلو المدرسة باصرار الوصول إلى الأم دون أن يعوا تبجيل الكوريين لرب الأسرة وأخيراً تعاون الأب مع المدرسة فى السيطرة على الطفل عندما تفاهموا معه بالطريقة التى اعتادها (٢٥).

كما يجب أن يفحص المدرس تأثير الثقافة على سلوكه الخاص فاذا لم يعلم الرموز الثقافية التى يصدرها فلن يفيد سوى القليل إدراك إشارات تلاميذه ، ويتحتم من الناحية المثالية أن يتم هذا الفحص الذاتى أثناء تدريبه وإن كانت التجربة التعليمية الواقعية للمدرس الواعى أعظم مرشد (٢٦) .

إن طفل الطبقة الدنيا وبخاصة طفل الأقليات ، نتيجة لشعوره بالاغتراب عن المجتمع الواسع ، يفتقر إلى الدافع كى يهدف إلى أهداف مهنية قد يتمكن من بلوغها ، ولذلك فان واجب المستشار المدرسى غرس المطامح المهنية التى لا تلقى تشجيعاً من الوالدين والمجتمع والرفاق (٢٧) إذ يقدم مثلا لذكور بالغين ناجحين يمكن لطفل الطبقة الدنيا أن يقلدهم وبهذا ينمى مطامح طويلة المدى تخص الطفل ، وينمى كذلك عوامل الصفات الشخصية اللازمة لبلوغها. كما أن زيادة المنح الدراسية التى تقدمها مؤسسات التعليم العالى لتعريف الطالب بأمثلة من أشخاص مهنيين من ذات جنسه أو دينه الوطنى أو لهم نفس الخلفية الطبقية وكذلك لتشجيع الوالدين للتعاطف مع ما استجد من مطامح لدى أطفالهم مما يعد من وسائل تشجيع الطموح الأكاديمى والمهنى .

فاذا تمكنت المدرسة من جذب اهتمام الوالدين أو تعليم أطفالهم فقد سارت شوطاً طويلا نحو التغلب على الاختلافات الثقافية (٢٨) . ويتحتم على المدرسين والمديرين أن يكسبوا ثقة الوالدين اللذين يعتبران المدرسة مجرد قوة غريبة تسيطر على حياتهما ، ويتحتم على المدرسة لبلوغ هذه الغاية أن تقدم للوالدين دراسات فى بعض الموضوعات العملية مثل الاختزال ، والحديث ، والآلة الكاتبة ، والحياكة ، وصناعة قبعات السيدات وكذلك دراسات تنشيطية فى القراءة ، والحساب ، وموضوعات أكاديمية كتلك التى تساعدهم على دراسة الميزانية ، وإعداد الطعام ، وإصلاح الأثاث ، والواجبات المنزلية وعلاقات الأسرة بوجه عام .

القيم الثقافية والفكر التربوى

المذهب التقدمى :

ولنتجه فى النهاية لنرى آراء النظريين التربويين فى مشكلة دور المدرسة فى تطوير بعض القيم الثقافية . يرى التربوى التقدمى أنه مادامت جميع الظروف فى المجتمع عرضة للتغير ، كما لا توجد طبقة إنسانية ثابتة فان جميع القيم بالضرورة مؤقتة . فالتصرفات السليمة لا تتجلى فى الالتحام بمستويات المعايير الثابتة أكثر منها فى التصرف المرتكز على التأمل ، إذن يتحتم على الطالب أن يتعلم القيم ليس كما هى ولكن أن يكتشفها من خلال التفكير المتأمل . فلا يتقيد بتطبيق مجموعة قوانين سلوكية على ظروف الحياة المتغيرة المرنة ولكن يجب أن يتعلم التقدير المسبق للنتائج المحتملة التى تؤثر عليه وعلى الآخرين فى مجالات التصرف الأخرى (البديلة) المتاحة له من مواقف بعينها . كما يقترح المدرس القيم التقليدية للثقافة الغربية كافتراضات أى الصالحة منها التى ثبت نفعها لمدة طويلة فى تكييف الناس للظروف ومع بعضهم البعض إلا إنها مجرد فروض يتحتم على الطالب اختبارها ليرى إن كانت تساعده على حل مشكلاته الحالية (٢٩) .

يؤمن التربوى التقدمى أن المدرسة تعجز فى مجتمع الديمقراطية الجمعية أن تملى على الطالب القيم الهرمية الموروثة . إلا أنها تستطيع التأثير على اختيار الطالب للقيم بدعوته للنظر فى بعض القيم بدلا من أخرى كجزء من تعليمه العام . ويتحتم على المدرس كى يضمن مشاركة جميع التلاميذ للتجربة المشتركة لإدراك القيم فى خلفية معاصرة أن يستخدم أساليب كثيرة ومواد متنوعة ، وإلا لو أعطينا كتاباً واحداً لكل طالب كى يقرأه فان كلا منهم سيتجه لما يروق له من أفكار بدلا من مشاركة رفاقه نفس التجربة العامة (٣٠)

ولا يتسنى السيطرة بسهولة على التغير الاجتماعى والثقافى فى الثقافة الموجهة من الخارج . إذ يفتقر الناس إلى قيم راسخة لتقدير أى التغيرات مرغوبة وأيها مرفوضة . ولم يعـد سوى القليل من التقدميين من يرى إمكان وجود استقرار فى عملية التغير ذاتها . ويتحتم كى يجد الطالب التسلسل الهرمى من القيم أن يتعلم كيفية فحص القيم التى تدفع لكثير من السلوك المعاصر حتى لا يتقبل سلوك المحيطين به كما هو دون تقييم لفروضه ونتائجه . كما يجب أن يدرس النواحى المتباينة ومشاكل الثقافة المعاصرة مثل : الإعلان ، والسيارة ، والطلاق حتى يفهم ما تتضمنه من قيم ، وأن يحكم عليها حكما ذاتياً . وسوف يكون أقدر على دراسة السلوك الحالى والحقائق بدلا من القضايا المجردة أو التاريخية ذلك أنه سيعمل لنفسه هرماً قيمياً واقعياً يرتبط بالعالم الذى يجب أن يعيش فيه (٣١) .

المذهب المحافظ :

إن وجهة النظر المحافظة فى نطاق القيم فى التربية تتخذ لها نموذجين : التواترى والجوهرى . فالتواترى يؤمن بتراكم مطلق من القيم ويعارض الوضع القائم بتمسكه بأن واجب المدرسة هو أن تغرس هذه القيم . ويعبر عن ذلك هتشنز فى كلماته التالية :

« إن هدف التربية الأول هو معرفة ما يصلح للإنسان ، أى معرفة ترتيب ما يصلح له . فهناك هرم من القيم وواجب التربية هو مساعدتنا على فهم هذه القيم وتأصيلها والتعايش معها (٣٢) .

ويرى الجوهريون أن المدرسة تغرس القيم الخلقية الهامة فى تطويرها للفكر والتفكير المتأمل على الرغم من أنها ، أى المدرسة ، يجب ألا تعطى تدريبا خلقياً صريحاً . كما يتحتم أن تؤثر المدرسة فى الخلق الشخصى لتلاميذها بأن تضمن توجيه أنشطتها وفقاً للمعايير الخلقية التى يفهمها التلاميذ بوضوح : لذلك يجب أن تشجع تلاميذها على الأمانة فى عملهم ويتحتم أن تكافئهم وفقاً لأدائهم الفعلى كما يتحتم أن تنزل الأنشطة الفكرية الجادة منزلة عالية ويقرر هارى براودى أن المدرسة تربى تربية خلقية عندما تشجع الاهتمام بالحقيقة والعقل وتساعد التلميذ على استخدام مواهبه أفضل استخدام وأن يبادر إلى معرفة ذاته بجعل التلميذ يفكر فى نفسه وأن يختبر قدراته بنفسه (٣٣)

ويدافع عن وجهة نظر المحافظين ا . ب. بركسون إذ يرفض الرأى التقدمى الذى يخول للطفل تكوين سلسلته القيمية . ويرى أنه يتحتم على المدرسة أن تعلم قيم الثقافة الغربية والتى يمكن الاعتماد عليها كثيراً أكثر من أحكام الطالب (٣٤) كما ينتقد النظرة التقدمية فى تدريب الشخصية بتقليد المواقف فى الحياة الواقعية . ويشير إلى أن القضايا الخلقية الرئيسية فى حياة البالغ مثل تلك المتعلقة بالزواج أو حياة المرء العملية إنما هى قضايا معقدة بحيث يتعذر على المدرسة أن تكررها إطلاقاً بشكل كاف . ويتحتم على المدرسة بدلا من ذلك أن تدرب الشخصية بطريقتين : بتعليم الطفل المعايير المعاصرة ومن هنا يتم الاستقرار الاجتماعى ، وتمكينه من انتقاد وتحسين هذه المعايير عندما يصبح بالغاً وذلك بتعليمه المثاليات الخالدة من الثقافة (٣٥) .

ويتمسك كلا النموذجين المحافظين بأن مسئولية الوالدين هى تعليم الطفل

بعض القيم التى يمكن أن يقومها بنفسه فيما بعد ، أما تربيته دون معايير ثابتة فلا يعتبر تحرراً بل اضطراباً له . ويتحتم على المدرسة فى ذات الوقت أن تقدم له التدريب العقلى الذى يحتاجه إن كان له أن يقدر هذه القيم موضوعيا فى حياته المقبلة . ولما كان محتماً على الوالدين ألا يتظاهروا من أجل الطفل باتباع القيم التى لا يؤمنون بها فما زالت مسئوليتهم فى تلقين تلك القيم التى يؤمنون بها للطفل ، ويقول أحد علماء نفس الطفولة : يحتمل أن تكون المحاولات المعتمدة لتربية الطفل فى جو من النسبية محاولات مضللة . ويحتمل أن تكون النتيجة أفضل عندما يرتبط الأطفال بمجموعة من المعايير الثابتة وفى ذات الوقت فتعطيهم التربية التى تمكنهم فيما بعد من ممارسة التوجيه الذاتى وذلك لأسباب تتصل بنموهم العاطفى والعقلى إلى الحد الذى يمكن به فصلها (٣٦) .

لقد أوضحت فى هذا الفصل تأثير القيم الثقافية على النظام التربوى ولقد بحثت للوصول إلى هذه الغاية موضوعات رئيسية ثلاثا : الاختلاف بين الثقافة المثالية والواقعة ، والصراع فى القيم المتسبب عن التغير الثقافى وعدم المساواة بين القيم السائدة وقيم الأقليات الثقافية . ولقد أوجزت باستعراض آراء النظريين التربويين الرواد فى تفضيل تلقين المدرسة للقيم وذلك لمساعدة مدرس المستقبل ليقرر بنفسه كيفية تطوير قيمه المختارة .